(1)

شتاء الحكايات

بعض الأعمال الروائية حين أقرأها أصاب بحالة من الذهول، يغادرني الضجيج واقترب من ذاكرتي وعوالمي الخاصة أكثر، أعتبر الحياة ليست حياة إذا خلت من اللون والصوت والحركة، فالحياة لا تكون إلا حيث يصرخ اللون معبراً عن نفسه بلا حياء كما في الحقول الشاسعة وكما في حدائق الأمهات، حيث تتواطأ الشمس مع المطر ليصوغا أسطورة بهجة الشتاء، وحيث لا تتوقف ضحكات الأطفال في الطرقات حين تبدأ تكتكات قطرات المطر على كل الأسطح، لا شيء بإمكانه أن يطفئ ضجيج الأطفال وضحكاتهم تحت سماء ممطرة، لا شيء يجعل الضجيج مبهجاً كالمطر وحكايات الشتاء.

obeikandl.com

الثرثرة التي تسمع من عمال هناك وخادمات ينظفن مداخل المنازل، وحديث جيران يسمع من بعيد يتصايحون من خلف الجدران، وعبور السيارات، وأصوات الأذان وعواء كلاب ضالة، ومواء قطط تتأهب لمعارك ليلية طويلة، وقهقهات الصبية الصغار في شوارع الأحياء الداخلية يتصايحون ويتسابقون على دراجاتهم الهوائية في طريق عودتهم من مسجد الحي بعد صلاة العصر ..

ذلك الضجيج هو العلامات المسجلة لوجود حياة في أحيائنا الصامتة، والمقاوم الوحيد لشيخوخة هذه الأحياء ورتابتها المملة، العلامات التي تحتفي بالتفاصيل اليومية والمعتادة الصغيرة والتافهة لتحولها من الصمت إلى البهجة ومن الاعتيادي إلى ما يشبه الدهشة، وبها نقاوم الصمت النهاري وقلق الوجود وأسئلته، والتعب وكل أمارات اليأس التي تقذفها حياة المدينة في وجوهنا كل لحظة منذ اللحظة التي نرتدي أقنعتنا ونلج الشوارع الكبيرة والجسور والأنفاق والمراكز التجارية الضخمة والمقاهي، في الحقيقة ليست هذه التي تمنحنا البهجة، إنه – حسب زعمي – ذلك الضجيج الذي نملأ به قلوبنا كل لحظة ونحن نرشف طرقات ضجيجنا الخاص المعبأ بتلك الإنسانية التي تركناها خلفنا قبل ان تبتلعنا أحشاء المدينة الكبيرة .

حين أشرف على الانتهاء من رواية جميلة يصيبني شيء من "الزعل" كمن كنت برفقة أشخاص طيبين سيغادرونني إلى الأبد، يا إلهي كيف يستطيع الروائي أن يجترح هذه المعجزة و« يخلق » هذه العوالم ممسكا بخيوط عوالمها وتفاصيلها من دون أن يتشابك خيط بخيط أو يعتدي مسار حياة على آخر، كيف يتمكن من أن « يكوم » العالم بين دفتي كتاب وأن يكومنا نحن على شفا ورقة وعند حافة غلاف، وحين أشرع في تذكر أسماء الروايات التي قرأتها هذا الشتاء تتقافز وجوه الأشخاص الذين رووا لي حكاياتهم وكشفوا أمامي قصص حبهم ومغامراتهم وضعفهم ونزواتهم وحتى أحقادهم وغيرتهم ودناءاتهم، فأعرف أن الشتاء ليس سوى حكايات .

وأنا أتتبع طقوس احتفاء الرجال والنساء بالمطر في تلك الحكايات التي قرأتها إلى حد وقوف بعضهم مبتهجين تحت دفق مرازيب السماء التي تظل تنهمر لأيام، استحضر الشتاء والمطر – هنا في مدينتي – ووجوه الأمهات وحكايات العشاق الذين سرقوا فرحهم في غفلة من العيون وربما تحت انهمار مطر شتائي مباغت، فازمنة الذاكرة لديّ مبللة بالمطر ورطبة بأصوات تختلط وكأنها تخرج من طرقات السنين كل صوت يصحب وجهه وزمانه ومطره وحكاياته .. أزمة الأمكنة ارتبطت عندي بانحسار المطر، جفت

القلوب فخاصمتنا السماء، ماعاد الأطفال يرقصون في الأزقة تحت المطر كما كنا نفعل وكما فعلت أمي وجدتي، تشهي المطر حد اللوعة وانحسار حكايات الشتاء وتفاصيله واحدة من التحولات الكبرى التي عاشتها أحياء المدينة، ما عادت الصحراء تزهر بدايات الربيع كما كانت تفعل، التحولات طالت كيمياء التربة والهواء ولون السماء الذي لم يعد أزق كما كان سابقاً وكما في المدن الجميلة بندف سحب بيضاء مؤطرة بنور خافت لشمس خجولة لا تقوى على مباغتة الغيم فتلاعبه طيلة يوم ربيعي عاشق ..

عرفت مع انحسار شتاء طويل بلا مطر، وبلا مواقد جمر وأباريق زعتر وزنجبيل أن التحولات أقسى مما نتخيل وستتعمق في الشتاءات القادمة، شتاء الحكايات يبدو أنه لن يعود إلا بعودة المطر الذي لا أدري أين اختبأ فجأة؟

لماذا نعشق الشتاء، ولماذا نشتاق لحكايات أمهاتنا، لماذا تصبح الأخوات الجميلات ذاكرة، ولماذا نحن لطقوس جداتنا أكثر مما نتذكر شيئاً من كلام ابائنا؟ لأن الأمهات يزرعن الحقول ويمنحن الماء حقيقته، بينما ينظر الرجال إلى الأمهات بشيء من الفوقية فقط لأنهن نساء، على حد تعبير بو دهمان في روايته « الحزام »، وغريبة تلك الأم التي استطاعت أن تغضب من ابنها أياماً لأنه ضرب أخته وأغضبها، وحين انتهى غضبها عليه بعد زمن قالت له :

لا تضربها، أختك عذبة كأغنية من ذا يضرب أغنية ؟!!

سأظل في كل شتاء أنتظر المطر، وأتذكر خيمة جدتي حين كنا صغاراً وكان المطر يبللها وعلى أطرافها تظل قطراته طيلة الليل تتساقط بايقاع رتيب تاركة على الأرض حفراً صغيرة جداً لكنها عميقة، وأرض الحوش المبللة والهامدة ذلك الهمود الهش الذي تغوص أقدامنا في ترابه عميقاً بمجرد أن نخطو عيها مستسلمين لإغراءات لا تقاوم بعد ليلة ماطرة شديدة البرودة، كل تلك الحكايات لا يمكن أن تغادر الذاكرة .

وفي الشتاء أزيح عني كل أغطية الأيام، أقرأ بنهم روايات تتحدث عن الشتاء وحكاياته، أجلس ساعات متأملة جمر الموقد بحمرته المغرية، أتلذذ بالدفء وانطفاء الجمر، أراقب طقوس أمي المملوءة بالحكايات، والسماء التي لا تزال بيضاء لا تشبه أي سماء أخرى، وأتساءل : من سرق لون السماء ؟

obeikandl.com

(2)

أسباب غير مقنعة للكتابة

سألني شاب إماراتي أعجبني صبره على الحوار معي : لماذا تكتبين؟ وكان لابد لكي أجيبه على سؤاله من سلوك أحد طريقين، إما الاعتذار عن الإجابة متعللة بضيق الوقت الذي أنا في حاجة إلى كل دقيقة فيه، وإما البدء في الإجابة وبالتالي التورط مع الوقت، وهذا ما كان، لكن السؤال على بساطته يشبه الورطة، وكان مهماً لكلينا للشاب الذي أصر على معرفة الجواب، ومهماً لي لأنني منذ زمن لم أتفقد شهيتي للكتابة كما يجب، وفيما إذا لايزال منسوب عافيتها جيداً بعد كل هذه السنوات، أتمنى أن يكون النهر في حالة فيضان على أية حال .

obeikandl.com

لماذا أكتب؟ سؤال شبيه بلماذا أتحرك ولماذا أعمل ولماذا نعقد صداقات جميلة ولماذا نقرأ؟ عن نفسي لو لم أقرأ كل يوم فقد يحدث لي شيء لا أدريه، ربما أبالغ ولكنها مبالغة من ذلك النوع الرومانسي الذي قرأته في واحدة من الروايات القديمة، مع ذلك فقد أجبت الشاب بشكل جعلني بأسئلته أدخل أنفاقاً ولا أخرج منها، كان نهماً في أسئلته وكنت نهمة في الحديث، اكتشفت أن كلانا نهم للحوار، نحن شعب لا يتحاور إلا قليلاً، وحين يفتح نوافذ الحوار غالباً ما يحلو له أن يذرف دمع الشكوى على كل شيء، وهذا ليس حواراً إنه تمرين ابتدائي على الانتحار البطيء !

الحوار لايعني أن تشتكي من الخدمات الاجتماعية المقدمة لك وينتهي الأمر، الحوار لا يعني أن تتحدث ليسمعك الآخر موافقاً، الحوار لا يعني أن يتحدث الجميع في الوقت نفسه، وحول الموضوع نفسه من دون أن يشذ أحدهم بكلمة خوفاً على حياته على اعتبار أن من شذ شذ في النار، إلا إذا صرفنا النار هنا عن معناها القريب المعروف إلى معنى أبعد للدلالة على الشقاء والعذاب ونفي الجماعة بحسب علماء السيميائية أو علم الدلالات .

لا حوار من دون وجهتي نظر أو أكثر، لكننا نمتلك موهبة عجيبة في إحالة المخالف إلى مصيرين : إما إلى حبل المشنقة، أو إلى حبل التكفير والتخوين

وبالتالي الحصار والتهميش والنفي من نعيم الجماعة ومنافعها، قلت لسائلي، هذا بالضبط هو السبب الذي جعلني أكتب أول مقال في حياتي في ديسمبر من عام 1996، وهذا ما يجعلني لا أزال أكتب بل وأصر على الكتابة دون توقف، لأننا يجب أن نتعلم كيف نتحاور قبل أن نطالب بقضايا كبرى لا نعرف كيف نديرها بعقلية الاقصاء ونظرية « أبلسة الآخر » فهو ابليس الرجيم لأنه على غير ما نعتقد، ونحن الفرقة الناجية لأننا هكذا نؤمن ونعتقد .

لا وجود لإبليس بيننا، ولا يملك أحد كل الحقيقة، فلو امتلك بعضنا حرفا من جملة الحقيقة فليحمد الله وليصل ركعتي شكر وقت السحر، فالحقيقة نعمة كبرى، ولكن ..!! إذا امتلكتها فاستكملها بحروف غيرك كي تتكون الكلمة، هكذا يقول علم اللغة، الاصوات الفردية تكون الكلمات التي نعرف بها الواقع، والكلمات تصنع الجملة، والجمل تقودنا كي نكتشف العالم والواقع وكل البناء الاجتماعي الذي نعيشه، بعيدا عن عنجهية الغرور، التي تتملكنا اذ نعتقد – مخطئين – بأن فلان لا يستحق أن يناقش لأنه ضال، وفلان لا يجوز أن يحاور لأنه ابليس، فما هلكت هذه الأمة إلا عندما أحرقت كتب علمائها في وضح النهار .

(3)

تفاصيل صغيرة ..

في صباح ما صحوت بعد أن كانت أمي قد اشتغلت في حديقتها، وشربت قهوتها باكراً وصرخت على خادمتيها كثيراً لأنهما لا تفهمان ما تطلبه منهما، تبادرني بعد أن نتبادل تحية الصباح وبشيء من افتعال حديث نكسر به صمت ليل طال كثيرا أسألها : أمي ما هذا الصراخ على الصبح؟ أمي لا تعتبر الساعة العاشرة صباحا لها علاقة بالصباح أصلا، لكنها ملت من كثرة تذكيري بأن وقت الصباح قد فات وبأننا قاب قوسين أو أدنى من أذان الظهر، مع ذلك أتلقى إجابتها المتوقعة: إنهما لا تفهمان ما أقول .

تعلم أمي جيداً أن عدم فهمهما لطلباتها مرده عدم معرفتهما اللغة العربية

obeikandi.com

أساساً، وأنهما تحتاجان للكثير من الصبر والوقت، هي تعرف ذلك فقد مر عليها تاريخ من الخادمات، لكنها تعبت وفقدت شهية التصدي لتعليم الفتيات القادمات من بلاد لاتعرف أين تقع وماذا يتحدث أهلها، لا تريد مزيداً من إهدار الوقت مع فتاة تعلمها سنتين كاملتين وعندما تتقن كل أمور البيت تفاجئها برغبتها في الرحيل وعدم العودة، لذلك لا تريد أن تدخل مجدداً في دوامات التعليم وألف باء التدريب، لطالما تمنت متى أن يكون لديها فتاة تعلمها وتعتمد عليها وتظل معها أطول فترة ممكنة؟

ما فائدة هذا التعليم ووجع القلب الذي نعيده ونعاوده كلما رحلت واحدة وجاءت أخرى ؟

مع ذلك فهي شديدة الرأفة بهما وبكل الفتيات اللواتي مررن على هذا البيت، لقد ظلت تقول لنا إن الرأفة بهؤلاء فرضه ديننا الذي أوصى بالمستضعفين، لذلك لا ترضى لأحد منا أن يعاملهم بقسوة، تقول عن هاتين اللتين تعاونانها حالياً إنهما كأبنائها لأنهما تساعدانها طوال اليوم من دون تذمر، منقطعتين عن ذويهما، جاءتا ساعتيين لطلب الرزق لهما ولابنائهما وأسرهما، ثم إنهما غريبتان والغربة ضعف وعلينا أن نحترم غربتهما لا أن نقسو عليهما !

أول ما فعلته أنني بحثت عن مذكرات إيزابيل الليندي « حصيلة الأيام » الذي تروي فيه شيئاً من سيرتها وتفاصيلها وحياة أسرتها، كنت قد اشتريته من مكتبة انطوان ببيروت، وجدته أخيراً بين ركام مجموعة من الكتب حملته وجهاز الكمبيوتر إلى الحديقة .

الحي يغط في صمته، ورائحة الصيف تقترب لكن بهاء حديقة والدتي أنساني ذلك الإحساس بارتفاع الحرارة، فغالباً ما أجدها كغابة يمكنك أن تلاحظ فيها أنواعاً مختلفة من النباتات الجميلة والغريبة، العصافير تتخذ من الأشجار الكثيفة مقراً لجوقة غنائية كلما تنفس الصباح، استغرقني التأمل فعدلت عن فكرة كتابة مقال كانت فكرته تسيطر عليَّ، قلت لنفسي لن أكتب اليوم شيئاً عن المرأة أو الطفل أو الثقافة أو تجليات الماضي، سأكتفي بكتابة هذه التفاصيل الصغيرة المتاحة بين يدي وأنا أرقبها عبر مكاني الظليل، تحت هذه الشجرة الضخمة التي زرعتها أمي هنا عندما انتقلنا إلى هذا المنزل منذ سنوات .

أردت أن أكتب بعض التفاصيل الخاصة بعائلتي، وجدت ذلك أمراً ممتعاً لكن صديقتي التي اتصلت بي في تلك اللحظة نبهتني إلى أننا شعوب لا تتقبل اعترافات الواقع حين يتعلق الأمر بحياتنا الخاصة، وجدتها محقة

فعدلت عن الفكرة، وتذكرت ما ذكرته إيزابيل الليندي في «حصيلة الأيام» من أنها حين نشرت روايتها الأولى تضايق منها عدد من أفراد أسرتها لأنهم اعتبروها خانت الأسرار حين كتبت أسرار العائلة واتخذت من أفرادها أبطالاً لرواية تحولت فيلماً سينمائياً فيما بعد .

تقول إيزابيل الليندي تعليقاً على موقف أقاربها : لم أتصور قط أن بعض الأشخاص في عائلتي سيأخذون تلك الأمور في الرواية بحذافيرها مع أنني تحايلت على الواقع كثيراً وغيرت في الكثير من التفاصيل، لقد امتنع أولئك الأقارب عن التحدث معي، وصاروا يتجنبونني طوال سنوات، ولكن حين تحولت الرواية إلى فيلم سينمائي كنت مقتنعة بأن الفيلم سيكون أشبه بذر الملح على الجرح لكن ما حدث هو العكس، فسلطة السينما مفحمة إلى الحد الذي تحول فيه الفيلم إلى تاريخ رسمي لأسرتي، كما حلت صورة البطلة ميريل ستريب محل صورة جدتي، وصالحني الجميع، ربما سيتسامح معنا أهلنا ذات زمن حينما تصير للسينما سطوتها وتصبح التفاصيل الصغيرة في وارد نشرها على الملأ .

obeikandl.com

(4)

حكت حتى ذبلت

أمي لديها ذاكرة جميلة ووفية، فإذا تحدثت فيما كان من أخبار ذاك الزمان الذي تكن له كل الوفاء والتقدير والامتنان، فاحت روائح بخور وعود وحناء وقرفة وأزهار ليمون، ذاكرتها كزهر اللوز أو أحلى أحياناً، ولدى جميعكم، من أهلكم وأقربائكم ممن يملكون شبيهاً بذاكرة والدتي، فكيف نترك تلك الثروة من الذاكرة تضيع بين شقوق الزمن، أظننا لا بد أن نبادر لعمل ما لحفظ هذه الذاكرة .

تاريخنا في أكثره ومجمله تاريخ شفاهي، تتنأقله الركبان والبدوان وكبار السن، فإن منحهم الله ذاكرة خضراء كأوراق اللوز وعطرة كأزهار الليمون

obeikandl.com

فإن العمر يمضي إلى وجهته المحتومة، وكل ما يقولونه هو نحن وأمسنا وحكاياتنا، ووقبائلنا وأنسابنا، وأسماء رجالنا وأطفالنا، ما يحكونه لنا هو نقل واع للتاريخ، لكننا لا نفقه مغزى تلك الحكايات أحياناً كثيرة .

حكت جدتي كثيراً حتى ذبلت أزهار الذاكرة ليها فصارت تخلط بين ما كانت تفعله صبية في « فريج الراس » في دبي وبين ما هي عليه اليوم في بيت ابنها في الخوانيج، ما بين الراس والخوانيج مسافة تسعين عاماً من الذاكرة المعبأة بأكثر من الكثير، تسعين عاماً ليس عمر امرأة صارت عجوزاً لكنه عمر بلاد فتية تحتاج لمن يصون أسرار ذاكرتها، فمدن اليوم التي بلا ذاكرة لا يمكنها مقاومة الانهيارات الكبرى التي تزحف على العالم بقسوة .

نتحصن بالذاكرة، نستتر بالأمس، لا نعيش نستالجيا الحنين الممرض، لكننا نترفق بأنفسنا في مواجهة التبدد والاضمحلال، وحدها الذاكرة المكتوبة تحفظنا، تحفظ حقوق ملكيتنا الفكرية لكل ما كان، ووحدهم أمهاتنا، جداتنا، آباؤنا وكل الكبار الذين يملكون شيئاً من معارف الأولين جديرون بحفظ ذلك لو أننا التفتنا إليهم وسجلنا كل ما عندهم وفق خطة وبرنامج وطني لحفظ ذاكرة الإمارات .

عندما تكلمني أمي عن أحياء دبي القديمة، حاراتها، بيوتاتها المعروفة،

أسماء الرجال والعائلات، الطواويش، النواخذة، صناع السفن الكبيرة، المعلمين الذين تتلمذ على أيديهم أجيال وأجيال، النساء العظيمات من صاحبات المواقف والمبادرات، الشعراء وأبيات الشعر التي تحفظها، القصص والحكايات والخراريف، و.. أقول يا الله ما أجمل تلك المدينة التي عاشت فيها أمي، وما أروع أن يكون كل ذلك محفوظاً ومصاناً .

أظن بأن علينا في الإمارات أن ننتبه إلى أن هذا الجيل من الكبار الذين يملكون الحقوق الفكرية الحصرية لهذه الذاكرة بدأ يتسرب عبر بوابة الرحيل المكتوب، وإننا بفقدانهم نخسر الكثير إذا لم نبادر بخطة مبرمجة لجمع كل شاردة وواردة يمكنهم منحنا إياها .

أعلم أن هناك مشاريع وربما أفكاراً قد طرحت سابقاً في الاتجاه نفسه لكنني أتحدث عن جمع الذاكرة الإماراتية الشفاهية على مستوى الإمارات كلها، وليأخذ العمل طابعه العلمي الموثق والرصين وليس الكرنفالي أو التبسيطي، نريد كتباً تخرج للنور بعد غربلة ما بداخل هذه الذاكرة، كتباً نقرؤها بشغف ونهديها لأبنائنا بثقة .

(5)

مديح لفراقٍ آت

في موروثنا الديني والشعبي المجدول بشيء من الدين وكثير من الميثولوجيا، تعلَّمنا درس الرثاء جيداً، وحفظنا درس الفراق من أول حرف في الأبجدية، تعلمنا أن الفراق إحدى سنن الكون والطبيعة، وأنه القدر الذي يختبر الله به صلابة أرواحنا، ومنسوب إيماننا «أحبب من شئت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت» وفي تفاصيلنا اليومية، وفي غمرة فرحنا بخزان العاطفة الذي نتباهى بقدرته على الحب، والشوق، نغرف من بئر بلا قرار بينما نضع غطاءً ثقيلاً من حجر على بئر الفراق المجاورة، نعرف هذه البئر جيداً حد محاذرة الاعتراف بوجودها .

حينما نغرق في بحيرات الضحك ننسى الدموع التي صنعت البحيرة،

obeikandi.com

وحينما نمعن في العشق نتجنب ذكر الفراق، هكذا يقول نزار قباني:

يا إلهي حينما نعشق ماذا يعترينا ... ما الذي يحدث في داخلنا ما الذي يكسر فينا؟

نزار لم يكن يبحث عن إجابة، كان يلقي في البئر المجاورة قطعة سكر في محاولة لتخفيف مرارة الفراق، وحين رثى والده بقصيدة عنوانها (أبي) قال بشكل لا يصدق :

أنا لا يموت أبي ففي البيت منه روائح ربٍ وذكرى نبي

هنا ركنه تلك أشياؤه تفتقُ عن ألف غصن صبي

جريدته تبغه متكأه ...كأن أبي بعدُ لم يذهبِ

وقبل نزار وبعده، حاول الشعراء أن يلمسوا ألم الفراق، أن يضعوه في بيت شعر ويغلقوا عليه الباب بالمفتاح، أن يخبئوه في أصواتهم وبوح القصائد، قالوا كثيراً، كتبوا كثيراً، فارقوا وتعبوا كثيراً، لكن الذين يرحلون يرحلون وحدهم ولا يعودون، يسرقون نجمة الصبح ونعاس العينين، الذين يرحلون يأخذون الصوت فنصمت في غيابهم طويلاً، زهداً في الآخرين لا في الكلام، الذين يرحلون يخبئون في جيوبهم الصوت والمدى، يخبئون المسافة، ويتركون لنا الصدى . بعض من يرحل عنا يتعسنا برحيله، بعض

من يرحل عنا يتعبنا غيابه، بعض من يرحل عنا يشقينا اختفاء ضجيج روحه خلف المسافة بعض من يرحل عنا يسرق فرحنا ويستريح!

الفراق جدلية العلاقة الوثيقة بين الكائنات وكل التفاصيل، الطفل يغادر الرحم، الحي يفارق الحياة، النظرة تفارق العين، الليل يفارق النهار، السهم يفارق القوس لحظة الانطلاق، والرصاصة تغادر إلى اللحم، الروح التي استقبل الموت المختبئ خلف الرصاصة تصير شاهدة أو تصير شهادة فراق كبرى. حينما رحل أبي أحسست بأنه رحل سريعاً ومبكراً جداً، خبأ قرآنه الذي يتلوه في الصباح في جيوبه ورحل ذات مساء، أخذ صمته معه ورحل، ولم أشبع بعد من اللعب معه، وبأنني مازلت بحاجة لأن أكمل معه مشوار طفولتي وأنا أقبض على أصابع يده في تلك المشاوير المسائية التي كنا نزور فيها بعض الأهل الذين نسيت أشكال وجوههم لكنني لم أنس دفء يدي والدي الذي رحل منذ سنوات .

حينما رحل جدي، أحسست بأن عموداً ضخماً سقط في مكان ما من الحي محدثاً بسقوطه دوياً هائلاً في بيتنا، بدا ذلك الدوي واضحاً في صمت جدتي المطبق وعويل والدتي الذي يشبه ألم القديسين، وفي انحسار تلك الزيارات التي يأتي من خلالها باذخ الأناقة معطراً بدهن العود، طارقاً

الأرض بدقات عصاه الثقيلة، وعلى جانب الباب الكبير مستئذناً الدخول، كما رجل نبيل يمارس نبله النقي في عقر داره! وحينما يرحل صديق إلى البعيد جداً، إلى هناك بعد أن كان هنا يرش حياتنا بالحياة وبالندى أشعر بأن رحيل والدي يحضر، وشيء من البيت يغادر معه، أشعر للحظة بأنني أرحل داخل بئر .

obeikandl.com

(6)

الحب في عيون بريئة

لدى أكثرنا – إن لم يكن جميعنا – اعتقاد بأن الأطفال لا يفهمون شيئاً ولا يعرفون أكثر مما يتفوهون به، إنهم بلا خبرة وبلا معارف ولا تجارب وبالتالي فمن أين ستأتيهم المعرفة والفهم وتكوين الانطباعات والآراء، وحدهم الكبار يعرفون ويفهمون، ويمتلكون الحق الحصري في تكوين الآراء والانطباعات، إنه السلوك الأبوي في التعامل مع كل شيء، نحن لا نحاول أحياناً أن ننظر للأمور من نوافذ الآخرين، ولا أن نضع أنفسنا في الزاوية التي يقفون فيها لنتعرف على حقيقة المشهد الذي يرونه، وكيف يبدو بالنسبة لهم، فهو يقينا يختلف عما يبدو لنا من الزاوية التي نطل منها !!

obeikandl.com

الأطفال كائنات ملغية في قاموس الكبار أحياناً، إلى درجة عدم الشعور بوجودهم، ليس الوجود الفيزيائي فالأطفال يجيدون طريقة التعبير عنه، ولكن وجودهم الإنساني، فهم من وجهة نظرنا لا يفهمون ولا يجب أن يعبروا أو يتحدثوا في حضرتنا، فنحن المتحدثون الرسميون بالنيابة عن الجميع، حتى وصلنا إلى الاعتقاد العجيب بأن الطفل الذي لا يتكلم ولا يعبر عن نفسه هو الطفل الأكثر أدباً والأرقى تربية، وهو اعتقاد ليس خاطئاً فقط ولكنه كارثي !!

في إحدى الدراسات الأميركية تم توجيه سؤال إلى مجموعة كبيرة من الأطفال حول ما تعنيه لهم كلمة الحب؟ فكيف فسر الأطفال الحب كما فهموه من كل ما حولهم؟ خرج الأطفال بتعريفات تعبر عن الزاوية الصغيرة التي يطلون منها على عالم الحب وعلاقاته، فمثلاً طفلة ذات ثمانية أعوام قالت بأن الحب هو عندما أصيبت جدتي بالتهاب المفاصل، ولم تكن تستطيع أن تنحني لتضع الطلاء على أظافر قدميها، فكان جدي يقوم بذلك لها كل مرة على مدى عدة سنوات حتى بعد أن أصيب هو بالتهاب المفاصل في يديه لم يتوقف عن القيام بذلك لها، هذا هو الحب كما استقر في وجدان الطفلة، فهل هناك أحلى من هذا الانطباع، إنه التضحية باستمتاع لأجل من

نحب . الحب هو عندما تخرج مع أحدهم، وتعطيه معظم البطاطس المقلية الخاصة بك، من دون أن تلزمه بأن يعطيك البطاطس الخاصة به، وهكذا ترى كريسي ذات ال 6 سنوات .الحب وهكذا لخصته، إنه العطاء بلا مقابل. داني ذو الأعوام السبعة يعتقد أن الحب هو عندما تصنع أمه القهوة لأبيه، ثم تأخذ منها رشفة بالملعقة لتتأكد أن مذاقها لذيذ، أي أن الحب هو تقديم أفضل ما لدينا لمن نحب .

طفلة أخرى تعتقد أن الحب هو عندما تخبر شاباً بأنك معجب بقميصه، فيقوم بارتداء نفس القميص كل يوم لأجلك، بينما تقول ألين ابنة الخامسة إن الحب هو عندما تختار والدتها أفضل جزء من الدجاجة وتعطيه لأبيها أي أن الحب هو القيام بكل ما يسعد الحبيب وإيثاره على أنفسنا، أما الحب فتشعر به ماري آن ذات الأربع سنوات حين يركض إليها كلبها فرحاً، ويلعق وجهها رغم أنها تركته طوال النهار بمفرده، الحب هو الصفح والتسامح إذن !

في النهاية لنتذكر أننا لا يجب أن نقول لشخص ما إننا نحبه إلا إذا كنا نعنيها فعلاً، وإذا كنا نعنيها فعلاً فعلينا أن نقولها له كثيراً، لأن الناس يعانون من النسيان ويحتاجون إلى من يذكرهم، هذه النصيحة هي التعريف الذي

اختارته جيسيكا ابنة الثامنة لمفهوم الحب، ولو أننا استغرقنا في الاستماع للأطفال حول رؤيتهم للحب ولمفاهيم كبيرة أخرى فإننا سنسمع الكثير في التعبيرات البسيطة التي تعبر عن رؤية أخرى للحياة لم نعتد عليها ولذلك فنحن إما أن نسخر منها وإما أن نستنفهها وإما أن لا نعترف بها كالعادة .

obeikandl.com

(7)

إلى أبي

إلى أبي هناك .. سأكتب لك اليوم لأقول كما لم أقل يوماً: بأني في مواجهة الريح أقف وحيدة كرمح في وضوح الصحراء، صلبة كما لم أتوقع، وصامتة كما لن تصدق، قادرة على قراءة خطوط يدي وخطوط الرمال المتحركة حولي، ذلك كان بفضل تضحياتك الكثيرة التي نسيت فيها نفسك وتذكرتنا آناء الليل وأطراف النهار حتى رحلت إلا منا، فنحن كما أردتنا وأجمل قليلاً.

إلى أبي الذي برغم سنواته الكثيرة التي لم أعرف عددها يوماً لأن شهادات الميلاد كانت بدعة لم تصل صحراءنا في أيامه، إلا أنك كنت سريع الخطو دوماً، أكنت تتعجل أمراً ما، لكنني أعلم أن كل الأوجاع نزلت بساحتك،

obeikandl.com

وكل المسرات قد سرقها منك آخرون لم تكرههم يوماً، من أين كانت لك تلك القدرة على الصفح؟ أظنني ورثت لوثة مشابهة منك .

إلى أبي هناك .. أتذكر تفاصيلك من أول سطرك، من وجهك النحيل وجسدك الضأمر وبياض بشرتك، وتلك السيجارة التي كانت تلازم أصابعك، لكنني لم أر خاتم زواج في أحدها يوماً، بدعة أخرى لم تسمع عنها فتحررت من القيود، لكنك ظللت وفياً لأمي كما لم يفعل رجل حبس اصبعه في خاتم، وكما لا أظنك أورثته لأحد من أبنائك .

أبي وقد كان الصمت طبيعتك حتى فكرت يوماً أن فصيلة دمك لا تشبهنا وأنها من نوع نادر، فكرت أن فصيلة دمك : الصمت، لماذا كنت صموتاً لهذه الدرجة، حين كنت صغيرة قلت لصديقاتي بأن أبي لا يتكلم كثيراً في البيت كآبائكم، وحين سألوني عن السبب قلت لهم لكثرة ما تستمعون للأخبار ولأغنيات أم كلثوم عبر الإذاعة، لكنني حين كبرت رأيت أن الذين يستمعون للأخبار لا يتوقفون عن الكلام، فأردت الاعتذار منك لكنك لم تعد هنا صرت ... هناك.

إلى أبي هناك .. سأبوح لك بسر لن يغضبك لكنك ستضحك على ابنتك التي لطالما أزعجها صوت مذيع نشرة الأخبار الأجش وغناء أم كلثوم، فأنا

يا أبي تخرجت من كلية العلوم السياسية وأدمنت السياسة والأخبار، وصرت أطاردها في وجوه مقدمي النشرات، ثم استمعت إلى أم كلثوم كثيراً جداً حتى أضناني السمع، وأرهقتني لوعة العشق في صوتها، لكن شيئاً واحداً هو الصمت ما تمكنت من مجاراتك فيه إلا مرة واحدة سأخبرك عنها لاحقاً، كنت حكيماً وكان الصمت طريقتك لمواجهة الفجائع .

أبي : هل تذكر كيف كنت تستعد لمجيئي من الجامعة بعد أسبوع الفراق الإجباري ذاك، كنت تعد لي أشهى الوجبات، كنت تغادر البيت صباحاً متدثراً بصمتك وبالسنوات الثقال كي تشتري لي سمكاً أحبه، كي نأكل جميعاً على بركة الرحمن كما تردد أمي، لم أنس مشاويرك تلك التي لم تتحدث عنها، أمي هي التي أخبرتني بها، أباحت سراً ربما أردت أن يظل بينك وبين نفسك .. آه يا أبي كم أشتاق معطف الصمت هذا تلقيه على كتفي اليوم في زمن لا يحتاج أكثر من حكمة الصمت .

إلى أبي هناك : لطالما أمسكت بأصبعك صغيرة كما كل الصغيرات ونحن نعود معاً من زيارات ليلية قصيرة لبيوت بعض الأقارب، اليوم وأنا أتذكر يدي الصغيرة تغفو في يدك، أشتاقك، وأتذكر أنك رحلت من دون أشبع منك، حين دخلت عليك وكنت مسجى في ذلك المشفى جمد الدمع

واختفى صوتي، بحثت عن بكاء فلم أجد، وحين احتواني صمت غرفتي ذرفت عليك دمعاً تستحقه ودخلت صمتك للمرة الأولى .

obeikandl.com

(8)

إلى صديقتي هناك

رسالة اليوم إلى رفيقة أو صديقة، فالعمر لا يزهر بلا صديق، والطريق نعبره بالرفيق أولاً، إنه الشخص الذي آمنا به – والعمر لا يزال طرياً – بأنه القادر دون غيره على اجتراح الفرح بمجرد أن يلوح في البعيد، الشخص الذي يصير مع الأيام ذاكرتنا الثانية وسترنا وغطاءنا، وشريك الشقاوات والحماقات، شخص لا تحتمل خفته ولا يحتمل ثقل بعده، شخص من المحتمل أن نأتي إلى هذه الدنيا ونرحل عنها من دون أن نلتقيه، فنصرخ يا صديق العمر، يا ملح الحياة تساقط أنساً جنياً، كن السماء والمظلة، وكن المطر وكن وقت الضيق والخسارات والضحك الذي بلا خاتمة .

إلى صديقتي .. هناك : بعد أن شاء القدر أن تكوني بعيدة، وتكبر صداقتنا في المسافة بين هنا وهناك، أيقنت أن للقدر مسارات لا نعلم أسرارها، نحن المتأرجحون بين الصدفة والقدر، وقد كنت يا صديقتي إحدى تجليات القدر، حين جئت شعرت كما يشعر أولئك الذين يربحون في اليانصيب مئة مليون دولار، يومها صدقت أن الصديق يمكن أن يكون المفاجأة الوحيدة التي لا تتكرر، تماماً كسحوبات اليانصيب الخرافية التي قد لا تحدث أبداً، ذلك يعتمد على علاقتنا بالحظ !!

صديقتي، عندما عرفتك فوجئت بضجيج الطفل الذي بداخلك، ففي الوقت الذي يسمع أفضل أصدقائي ما أقول، تسمعين أنت ما لم أقل، في الحقيقة كانت تلك نعمة مدهشة، و كنت أعيد اكتشاف كثير من المناطق المجهولة كوكبي الخاص .

إلى صديقتي هناك.. كنت تبحثين عني بمحبة، وكنت قد بحثت في كل الدنيا لأجدك، ومنك سمعت أننا نأتي إلى الدنيا وقد نرحل عنها من دون أن نحظى بأجمل الأشياء، أظنك تعنين بأجمل الأشياء صديق يعرف أغنية قلبك ويستطيع أن يغنيها لك عندما تنسى كلماتها .. إنه أنت .

صديقتي، المحبة لا تحتاج لبطاقة هوية أو جواز سفر، تحتاج أن نؤمن

بإنسانيتنا أولاً، الإنسانية ارتقاء فوق شرطنا البشري المليء بالعيوب والنقائص بالعنصرية والأنانية، كم تبدو إنسانيتك شفيفة حد تساقط الدمع برمشة عين، كيف استطعت أن تجمعي هذا الصدق وهذا الجمال؟ لا أبحث عن جواب، أراه في نحول جسدك المنهك .

إلى صديقتي هناك .. من أين تأتين بهذا الصبر على احتمال قسوة الدنيا بروح ضاجة بالمرح؟ ومن أين آتي لك بقدرة توازيها لأكون جديرة برفقتك؟ في مرضك كم وددت لو كنت قربك، لكنني ابتعدت كثيراً لأعاقب الجغرافيا على قسوة المسافات، فأنت تستحقين جلال القرب وتراتيل الدفء، واحتفاء العائلة .

صديقتي، كنت أحب البحر ولدت قريباً من صوت أمواجه وروائح النوارس تعبث في سمائه، كان معنى موازيا لحرية طفولتي، واخضرار الذاكرة، ما كنت أحسبه سيفصل بيننا، لماذا فعل؟

لماذا كنت بعيدة هناك ؟

إلى صديقتي هناك .. صباحك شمس هذا اليوم يا حبيبة الشمس، صباحك سكر اليوم عسى أن تكون حروفي يد طفل مباركة تمحو قسوة الأيام التي مضت ، وتأتي لك بسكر العالم كي تصبح كل أيامك أحلى .

صديقتي، شكراً لأنك احتملت تقلبات مزاجي، صمتي، كتاباتي وقراءاتي التي لا تحبينها أحياناً، شكراً لأنك بقيت صديقتي رغم ما كان ذات يوم .

obeikandl.com

(9)

إلى شاب

الرسالة الثالثة إلى شاب حادثته لاستيضاح أمر ما ثم التقيته لأعرف أكثر، وحين جلست إليه انهمرت المعرفة كمطر شتائي غامر، كان حديثاً في التعليم، في الصحة، في الأدوية، في شؤون طلاب البعثات، في الأزمة الاقتصادية، في تجربة الإمارات، في الأمراض المستعصية، في البطالة وفي أشياء كثيرة مختلفة، لم أحدثه بعد ذلك اللقاء، لكنني لازلت تحت تأثير حكاياته وتجاربه التي حدثني عنها رغم صغر سنه أو على الأقل هذا ما بدا لي من تقاطيع وجهه الفتي .

عزيزي ..وأنت تجلس لا أدري أين : في غرفة مكتبك، أو تحت الخطى

باتجاه قاعة الدرس لتلقى محاضرتك على طلابك، ألا زلت عند قرارك الذي أسررت به إليَّ : إنك لا تأمل في هذا الجيل الذي يكافح ليعيش، لا تأمل شيئاً في كثير من التنفيذيين في المؤسسات التقليدية، وإن الأمل والمخرج بحسب رؤيتك وبوصلة قلبك في هؤلاء الشباب الذين يملكون وحدهم مفاتيح البوابات للعبور بنا نحو فضاءات أفضل وأكثر اتساعاً؟ أنا أتفق معك تماماً .

عزيزي ... وقد حدثتني عن انهيار أعصابك بعد مواجهات رفعت فيها صوتك وخبرتك ومعرفتك في وجوه حراس المصالح، إلا زلت مصراً على عدم العودة لتلك المؤسسة ولتلك الوظيفة التي منحت الغربة لأجلها أكثر من عشرين عاماً من عمرك لتعود أقوى مما ذهبت وأكثر ازدهاراً بالمعرفة؟ أظنك قد اتخذت قرارك بلا رجعة أو تراجع، فمن خسر في هذه المعركة ياترى : أنت أم نحن جميعاً ؟

عزيزي ذلك الشاب.. لقد رأيت فيك الوجه الآخر الأكثر قوة وامتلاكاً لأدوات المستقبل، في مواجهة ذلك الوجه السلبي الذي حاول الكثيرون ترويجه لشباب الإمارات، كم كنت ممتلئاً بالمعرفة والمعلومات والاستدلالات، لم تنقصك جرأة الإشارة المباشرة إلى مكامن الخطأ ودوائر السيئات، كما لم تنقصك شجاعة تسمية الأشياء بمسمياتها، انطلاقاً من

حرص واتكاء على قوة المعرفة، إن المعرفة قوة تحصين هائلة لا يعي قدرها إلا العارفون .

حدثتني عن عالم الأدوية وتخبط السياسات الدوائية ودور الأهواء والمصالح والعلاقات، ومافيا الشركات الكبرى التي تتنافس للاستحواذ والسيطرة، حدثتني عن الخيط الرفيع الفاصل بين الأخلاقيات والأخلاق، بين المصالح والعلاقات، بين السياسة وشركات الأدوية، حدثتني بعمق وتشعب وتجربة، حدثتني مسهباً مسترسلاً، بعد أن تعبت من محاولات وضع الحصان أمام العربة ليستقيم السير بلا كوارث لكنهم لا يسمعون !!

عزيزي .. لقد أهديتني أفكاراً كثيرة وفتحت لي باب الرؤية على اتساع الأفق، فضاقت عبارتي عند كلماتك، وعرفت على وجه اليقين ساعتها أنه كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة، لم أكن بحاجة كبيرة لدلالات اللغة لأقول لك كم كنت حكيماً وعارفاً، وكم هو محزن أن لا ينصت لك المعنيون بالشأن الذي درسته وبرعت فيه، كما ينصت لك كبار أصحاب الشركات والمؤسسات العملاقة في العالم، أليس رائعاً أن يكون لدينا شباب مثلك يجالسون كبار العالم مستشارين وخبراء معترف بهم ؟

أينما ستذهب وأينما ستعمل فإن ذكرى ذلك اللقاء ستبقى محفورة في

داخلي لشاب إماراتي رائع، أعلم يقيناً أن الإمارات تضم مئات النماذج مثله، لكن مهنة الغوص بحثاً في أعماق البحار عن أغلى وأندر اللالئ، هذه مهنة غدت شاقة وبائسة ومزعجة جداً بعد أن استشرى الكسل في جسد إنسان ومؤسسات مدن الحداثة .

obeikandl.com

(10)

إلى مسؤول لا أعرفه ...

هذه الرسالة لا بد أن تصل اليكم، فأنتم من دون أن تعرفوا على وجه اليقين وربما تعرفون على وجه اليقين، تدمرون شباباً في أول العمر، قلوباً طرية ترتجف في مهب المستقبل كأوراق الورد، تدمرونهم بقرار، بجرة قلم، بتوقيع فخم غريب تفوح منه رائحة لا مبالاة ربما وربما هي العجائبية التي تمنح بعض أصحابها شعوراً موازياً بالعظمة ولو من خلال التواءات توقيع ملفت .

رسالتي إلى مسؤول .. وكلمة مسؤول ينطقها بعض أهلنا من البسطاء والطيبين " ماسول " بشيء كثير من التفخيم والرهبة ،بينما للكلمة حمولة

obeikandl.com

فضفاضة فائضة عن الحد ومبهمة، ففي الوقت الذي توحي فيه الكلمة بصفة ثقيلة ومخيفة كما هي في موروثنا الديني والاجتماعي « على اعتبار كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » الأمر الذي يحمل المسؤول أمانة كبيرة تضعه في مواجهة أي خلل وأي تقصير وأي عثرة قد يتعثرها أحد ممن يقعون في نطاق مسؤوليته (الخليفة عمر بن الخطاب مثلاً كان يرى نفسه مسؤولاً عن البغلة إذا تعثرت في العراق بينما هو في المدينة.!!) لكن كثيراً من مسؤولي اليوم يجدون في الكلمة / الصفة بريقاً درجة اجتماعية ووجاهة لا أكثر!

أيها المسؤول عن برامج دعم الشباب الصغار الذين كلما سمعوا عن أحد هذه البرامج حلقت آمالهم إلى أعلى عليين وارتفع سقف طموحاتهم وسمع دوي الفرح في صدورهم كما طنين النحل، فإذا هم نحل يتساقط مغمى عليه بمجرد أن يلامسوا تلك الحقيقة حين يجلسوا أمام أحد موظفيك ممن يملك سلطة الموافقة على مشاريعهم أو توظيفهم أو تحقيق طموحاتهم، عندها تغمض الأماني عيونها، ويحتل القهر كل التفاصيل في المسافة بين عيون ذلك الموظف وقلوب هؤلاء الشباب .. ألست مسؤولاً عن هذه الهزائم المبكرة ؟

أيها المسؤول.. يامن أعطيت السلطة والصلاحية والثقة والكثير من الأموال التي وضعت بين يديك لأجلهم، لكي يبدؤوا بها مشاويرهم،

لتأخذهم الحياة في طرقاتها فيما بعد، تشد عودهم، تكسرهم أحياناً، وتحنو أحياناً، يقعون فينهضون فيقوى الغصن ويزهر، هكذا هي الحياة كما خبرتها أنت، فلماذا لا يمنحهم فرصة اختبار الدنيا كما خبرتها بمشقة أقل، ألست مسؤولاً عن ذلك ؟

أيها المسؤول عن التوظيف والترقيات والتدريب والتأهيل وكل ماله شأن بموارد الوطن الشبابية ألم يأتك خبر ذلك القول الفصل الذي تركه ضوءا بين أيدينا غفر الله له الشيخ زايد بن سلطان « الرجال هم من يبني المصانع، ليست المصانع من تبني الرجال » وإذن فلماذا لا تعطي نفسك فرصة تاريخية لتطبيق نظرية عظيمة وضعها بان كبير ومؤسس لا مثيل له في تاريخ الإمارات؟ أتبخل على الشباب وعلى نفسك بالفائدة، جرب ستجد هذه الدولة خلايا عمل بسواعد شبابها وعقولهم ونواياهم المخلصة .

أيها المسؤول .. كلنا مسؤولون ولست وحدك لكنك صاحب قرار، وصاحب القرار يملك ويحكم، يملك فتح الأبواب لفتية آمنوا بوطنهم وبأنفسهم لأن الوطن آمن بنفسه من خلالهم، وآمن بهم، وفي الحقيقة فهم يستحقون وأكثر، نحن لا نستجديك ولا نستعطفك لكننا نذكرك لا أكثر، فما بين يديك ملك للوطن ولهؤلاء الشباب، فلا تجعل أحداً أهم منهم ولا

تقدم عليهم أحداً، فمنذ البدء كان الوطن وكان المواطن .

أيها المسؤول .. كبير قلب الوطن، بحجم سماء وبياض غيمة، استوعب الكل واحتمل الجميع، لكن الذي سيبقى صامداً كرمح في مهب العواصف يدفع عن ثوب الوطن أن يمس هو ابنه وجذر العراقة فيه ورائحة الآباء في أرضه وأصوات الأولين في متاهات صحرائه ..

أيها المسؤول كن مسؤولاً وكفى .

obeikandl.com

(11)

إلى شهيد

هذه رسالة لن يتسلمها صاحبها ولن يقرأها ذات يوم، وكثيرة هي الرسائل التي لم يمهل الوقت أصحابها ليستلموها، كثير من الناس كتبت عناوينهم خطأ فضلت الرسائل طريقها إليهم، كثير من العشاق اعترضت رسائلهم أيد خفية فذبل ورد العشق في الرسائل وخفتت الشهقة في القلوب، وقوافل من الشهداء يمضون كل يوم إلى السماء مكللين بالمجد ومخفورين ببسملة الملائكة، وزغاريد الأمهات، هؤلاء الشهداء لطالما تمنيت أن أقابل شهيداً قبل أن يرحل، لطالما تمنيت أن أكتب له في عليائه رسالة .. إلى شهيد جميل كوجه نبي .. فيم كان رحيلك باكراً؟ كيف انسللت بخفة عصفور ملون

obeikandl.com

من بين ذراعي أمك لتلحق بالراحلين إلى السماء، هل عرفت أن قذيفة غدر مصوبة إلى صدرك في تلك اللحظة، هل أحسست ببرد اليقين يهب من مكان قصي، هل أغمضت عينيك للحظة لأنك لمحت جناحي ملاك مهيب يناديك لمرافقته؟ يقال بأن الأموات تتكشف أمام أعينهم الحجب فيصير بصرهم كالحديد، يرون عالماً لا نراه نحن المتحلقين حولهم .

إلى شهيد بهي كطعم الجنة .. وأنت تصف كراريسك وكتب جامعتك وقمصانك البسيطة قبل انهيار السقف على رأسك هل أبلغت والدتك بأنك ستترك لها رائحتك وأحلامك وإخوتك وتمضي؟ هل أعلمت رفاقك أنك لن تكون معهم هذا الصباح وبأنهم سيبكونك بدل أن يحدثوك عبر الهاتف؟ هل شعرت وأنت تقف في المسافة اللأمرئية بين الأرض والسماء على تخوم النور واستغفار الملائكة بأنك راحل؟ هل فرحت؟ هل تلبست اليقين من أخمص قدميك فما عدت تبالي بشيء حتى بالموت؟ كيف لنا أن نحظى بإجابات ؟!

إلى شهيد نقي كلون النور .. هل تسمع هذا الضجيج خلفك؟ هل يزعجك هذا الجدل التافه الذي يسقط فيه أهل الدنيا حولك؟ هل نعتذر اليك أم نعتذر منك؟ لقد أودعوك البياض والصمت والرحيل، أغلقوا غابة الشتاء وقطعوا

أشجار الحزن واستظلوا العراء وأخذوا يتصايحون خلف جنازك : أهو شهيد أم قتيل؟ بعضهم عمدك شهيداً ومنحك صك الغفران، وبعضهم أصر أنك لست شهيداً أبداً، وأنك كنت ابن لهو وأنه رآك في الليلة الفائتة تلعب كرة قدم في شارع مترب .. إنك تنظر إليهم بذات الابتسامة التي فارقتهم بها، لكن ماذا يدور في رأسك وأنت تسمع صياحهم؟ أنت لا تزدريهم بالتأكيد لكنك تريدهم أن يصمتوا وكفى .

الى شهيد بسيط كأحدنا وعظيم كبطل .. لقد رحلت، انتهت علاقتك بكل ما خلفته وراءك، ما عدت بحاجة إليهم، ما عدت تتذكر ألوان قمصانك، لا تتذكر سوى هذا الأحمر الذي كفنت به، نسيت زجاجات العطر التي وصلتك في عيد ميلادك، صار يوم استشهادك ميلادك الآخر، ما عدت تسمع كلام الناس صرت مبللاً برحمات ربك وأصوات الملائكة، صرت إنساناً آخر، عالياً كسماء، مشعاً كنجم ومبتسماً على الدوام بانتظار أن يأتيك خبر رحيل الطغاة والمتجبرين والقتلة، لكن أحسبك تنتظر أن ينتهي هؤلاء من تنازع سلطان الله في توزيع هبة الشهادة .. أنت شهيد لأن الله منحك هذا الشرف فكيف أباح البعض لأنفسهم بعدك أن يجلسوا فوق قبرك ليتخاصموا حول مصيرك؟

(12)

إلى حارات اللهو

لا يصبح للأمكنة معنى ورائحة إلا حين نسكنها، الأمكنة الفارغة لا حياة فيها، ولذلك مرضت أمي طويلاً حين تركنا منزلنا القديم وانتقلنا إلى هذا الحي الجديد الذي نقطنه الآن، إنها لا تعرف جيرانها ولا علاقة لها بالبيت الجديد، لقد غادرت منزلاً عاشت فيه لأكثر من ربع قرن، هي لم تغادر غرفاً وجدراناً وأبواباً عتيقة فقط، لقد غادرت ذاكرتها وعمرها، ضوضاء صغارها الذين ربتهم وكبروا في ذلك المنزل، لقد راكمت هناك كل العمر والذاكرة، وحين أعود بين الحين والآخر إلى منزلنا القديم أتذكر جلسات أمي بين الشجيرات التي طالما اعتنت بها، وتسقط من عيني دمعة على شجيرات

الفل التي قضت أزمنة طويلة وهي تربيها وتستنبت منها أشتالاً توزعها في مختلف الحديقة، فتوزع البهجة بالفل وبالبهاء سعيدة بفرحها الخاص سادرة متآلفة مع تفاصيل عالم بسيط صنعته وصنع ذاكرتها، وأتفهم مرض أمي حين أتجول في حجرات المنزل، أتذكر تاريخ كل قطعة أثاث اشترتها، ومناسبة كل تغيير أحدثته، مناسبات الأعياد ويوم تزوج شقيقاي ويوم عاد أخي الأصغر من أمريكا منهياً دراسة الهندسة وغربة ثمان سنوات بكت لفراقه خلالها كثيراً وطويلاً .. أتذكر كم شهد ذلك المنزل من أحداث لا يمكن تكرارها ولا يمكن نسيانها!

للأمكنة سحرها وسطوتها، أمكنة لا يمكن نسيانها، وأمكنة لا يمكن مغادرتها، وأمكنة تنام وتصحو في دواخلنا كل يوم، أمكنة تشم رائحتها حتى بعد سنوات من مغادرتها، وأمكنة تعبق رائحتها من مساماتنا، رغم أنها انمحت من أرض الواقع.. تحمل الأمكنة جزءاً منا، من أعمارنا، من ضحكنا، من شقاواتنا من تاريخنا، طفولتنا، قصص عشقنا، حكايات أصدقائنا الذين سرقهم الزمن وتقاسمتهم المسافات، وحكايات الوجوه القديمة التي تركت بصماتها في حياتنا..

لا تنسى أمي فريج الراس أو منطقة «الراس» في ديرة، حيث مكتبة دبي

المركزية ومدرسة الأحمدية والفرضة الميناء وبيوتات العائلات المعروفة في بر ديرة ... مازالت تتذكر أدق التفاصيل رغم مرور خمسين عاماً على مغادرتها ذلك الحي، مازالت أسماء النساء والرجال، مواقع البيوت، وأصحاب الدكاكين، ومازال الغواصون والطواويش والبحارة، النواخذة، التجار، المطاوعة، الفقراء، الأغنياء، شقاوات البنات وهن ذاهبات لدرس القرآن .. مازال كل ذلك عابقاً في ذاكرتها وكأنه حدث بالأمس، أو كأنها أغلقت حي الراس بالمفتاح مساء البارحة وهاهي تفتحه كل صباح لتغرف من عبقه زاداً للعمر المتبقي!

نقلت لي أمي عشق الأمكنة، أصابتني عدوى الولاء لحارات اللهو وبيوت الطفولة، أصبت بحدة الذاكرة، ذاكرة الصورة والصوت، ذاكرة اللون والرائحة، فأنا أتذكر تماماً حي أو فريج عيال ناصر حيث أنفقت سنوات طفولتي البهية وسنوات المدرسة الابتدائية الأولى.. أتذكر بيتنا والدرج الموصل للسطح حيث علقت قدمي ذات يوم بشيء ما فتدحرجت من أعلى السلم إلى أسفله صارخة من الألم، وإذا بأمي وجدتي تأخذانني لرجل كبير السن عدت من عنده وجبيرة قاسية تقيد ذراعي التي بقيت زمناً مربوطة ومدلاة على صدري بخيط مربوط في عنقي!!

أتذكر بقرات جدتي، ومطبخها الدافئ حيث كانت تعد لنا حليب البقر والخبز الساخن كل صباح... أتذكر صوت المطر وهو يروي تراب الحوش النظيف وشجرة اللوز الكبيرة التي تقع في مدخل المنزل، أتذكر البحر الذي جاورناه وكان منزلنا أول المنازل المطلة عليه بعد أن تساقطت منازل عديدة لجيران سبقونا بترك الحي بعد حوادث الانهيارات تلك.. وأتذكر ورشة خالي عبيد صانع السفن الذي كان يستقبل في الهواء الطلق أعداداً من الأجانب الذين يأتون ليلتقطوا له الصور وهو يمارس مهنته بصبر ومحبة، بلا مخططات ولا رسومات، فيبدع سفناً خشبية مشهورة في قاموس أهل البحر والتجارة، كان أولئك الأجانب حين يفدون إلى الحي يثيرون عندنا سُحباً من الأسئلة حولهم، حول ملابسهم الغريبة، ونسائهم شبه العاريات، وأدوات النجارة القديمة التي كانوا يطلبونها من خالي ليحتفظوا بها، كانوا سياحاً، وصحفيين، ومراسلي جرائد إنجليزية وفضوليين.. كانوا حين يملأون الورشة المفتوحة في الهواء الطلق نركض إلى أفنية المنازل نتوارى فيها، ونظل نراقب تصرفاتهم من ثقوب الأبواب الخشبية .

ذاكرة الأمكنة.. هي نحن.. هي أعمارنا التي توارت في الأزمنة وراء أبواب تلك الأمكنة .

(13)

مدينة الملائكة

وأنت تعبر فضاء الشارع تتوالى عليك عشرات الصور ومئات التفاصيل، وفي حيز صغير جداً لا يتعدى عشرة أمتار يمكنك أن تجد ثلاثة مطاعم وعربة بيع فاكهة وحشداً من النساء المتسكعات وامرأة تقوم بعمل مساج لامرأة أخرى وعلى الرصيف مباشرة، بينما عدد من الرجال والنساء يتناولون الأرز من قصعات صغيرة بأعواد خشبية على الطريقة المتعارف عليها في شرق آسيا، أما تلك المرأة فتفتتح مطعماً بكامل معداته : أدوات الطهي، الفرن وأنبوبة الغاز، وطاولتين وستة كراسي، ولا شيء آخر، وجرب أن تجد مكاناً في هذا المطعم الذي لا يكاد يخلو من الزبائن، زبائن الشارع الدائمون !!

obeikandl.com

لا تستغرب إذا وجدت خياطاً بكامل أدوات محل الخياطة يمارس مهنته على الرصيف، طاولة عليها ماكينة الخياطة وكرسي يجلس عليه وطاولة خشبيةخلف ظهره وقد راكم عليها طلبات الزبائن، وبينما يجلس هو بلا مبالاة في منتصف الرصيف فإن الناس يمرون على أدواته جيئة وذهاباً من دون أن يفكر في أن يرفع رأسه ليطل على ما يجري حوله ،إنه منهمك في اتمام بنطلون ذلك الزبون المنتظر بالقرب منه !!

تساءلت هل يستلزم افتتاح محل خياطة رخصة من بلدية بانكوك يا ترى؟ لكن ماذا توفر له البلدية من خدمات ليدفع لها ضريبة استصدار رخصة تجارية؟ لا شيء إنه يعمل على ضوء الشمس، فلا تسهيلات ولا خدمات على الاطلاق والحياة على طريقة « عش كما تيسر» هكذا يعيش الناس في أحياء الفقر هنا في تايلند البلد الذي حين سألت الطبيب عن معنى اسمه قال بأنه يعني أرض الحرية، أما بانكوك فاسم جديد للعاصمة التي يعني اسمها مدينة الملائكة، تماماً مثل لوس انجلوس الأميركية، وبدون أن أدري وجدتني ابتسم عند سماعي لمعنى الاسم خاصة وأنا أتذكر صوراً كثيرة عبرت عليها في تلك المدينة وليس بينها وبين الملائكة أدنى صلة على الإطلاق !!

إذا تنقلت في أرجاء المدينة فإنك ستلحظ مناطق التسوق الراقية جداً

والأحياء التي تشع ببريق الثراء والنظافة حيث النساء بشفافية أوراق الورد وحيث الرجال في كامل أناقتهم يتوزعون بين مهن غاية في الرقي تتراوح بين الطبيب والتاجر والبائع في محل عريق والمهندس وغيرهم .... إنها مدينة الملائكة كما يعتقد أهلها، وقد تصدق ذلك وأنت تضع رجلاً على رجل في أحد الفنادق الفخمة أو في أحد مقاهي ستاربكس الفارهة، لكنك لن تصدق المعنى وأنت تسير في أسواق الليل أو في أحشاء المدينة بعد هبوط الظلام، أما تفسير اسم تايلند على أنها أرض الحرية فسيروقك و لكن بحسب ما يمكن أن يأخذك إليه التفسير، ففي هذا البلد أنت حر في أن تفعل ماتشاء طالما لم تعتد على أحد، من هذا المنطلق منعتني صديقتي من إبداء أي انطباع بالاستياء تجاه تلك البائعة الأنيقة جداً ذات الثياب الشديدة البهاء والاكسسوات الملونة ،حين دخلنا لنتبضع من محلها فقد اتضح لي بعد خمس دقائق من دخول المحل بأنه بائع وليس .... بائعة !!

وبرغم كل مشاهد الفقر والبؤس وانعدام أبسط مبادئ النظافة، إلا أن بانكوك مدينة تستهوي الكثيرين من العرب – لم تستهوني على الإطلاق – وأجد بأن مرد ذلك يعود إلى مزاج المدينة ورخص أسعارها وتوافر الكثير من الخدمات الصغيرة والمختلفة والمهمة للكثير، وتلك الشرقية أو الحميمية التي

تمتاز بها مدن الشرق القديمة والفقيرة والمكتظة عادة مثل القاهرة ودمشق وبومباي، من دون أن يعني ذلك إضفاء أي طهرية على المدينة، فبانكوك ليست مدينة ملائكة بالتأكيد، لكنها مدينة حياة مختلفة وحافلة بالتفاصيل والألوان لمحبي التفاصيل والألوان !!

obeikandl.com

(14)

الصرخة

نختلف في تعاملنا مع الظروف الطارئة، والمواقف الحياتية الروتينية، كما نختلف في التعامل مع مشكلاتنا المعقدة، وإدارة أزماتنا، سواء أكانت مالية أم عاطفية أم أسرية، والاختلاف طبيعي لأننا كبشر مختلفون في كل شيء، وأول ما يؤثر في طريقة تعاملنا مع مواقف الحياة نوعية التربية التي تلقيناها في طفولتنا، والأفكار التي نؤمن بها وتملأ نفوسنا، ومستوى التعليم الذي حصلنا عليه، والتجارب والمعارف والقراءات التي توافرت لنا، كل ذلك يجعل أحدنا يسلك طريقاً بينما يسلك غيره طرقاً أخرى، ويختار شيئاً قد لا يحبذه الآخرون، ويتخذ موقفاً يستغربه غيره وهكذا !!

obeikandl.com

ومن كل ما نتفق عليه، وبين كل ما نختلف حوله، تبقى هناك قوة دافعة جبارة في داخلنا، اسمها الإيمان، إن هي استغلت بشكل صحيح تجاه الهدف، فإن أزمات كثيرة، وكوارث أيضاً، يمكن التغلب عليها، كما أن إحباطات وتجارب فشل يمكن تحويلها إلى دروس وفرص عظيمة لتحقيق حياة مليئة بالهدوء والإنجازات والثراء قد لا تخطر على البال، والثراء هنا لا يعني المال دائماً.

أغلبنا يريد أن ينجح، وأن يبرز في مجال عمله، وبعضنا يحلم بالشهرة وآخرون بالثروة، أو بعلاقات عائلية وعاطفية متناغمة ومنسجمة، لكن الذين يحققون كل ما يحلمون به عدد قليل جداً من الناس، المسألة في الحلم ليست في أن نريد، المسألة الأكثر أهمية أن نملك فكرة واضحة عما نريد، ورغبة مشتعلة في تحقيق ما نريد، وإيماناً ثابتاً في تحقيق ما نريد، ومن دون ذلك سنرتكب أحد أكبر أسباب الفشل وهو عادة التخلي عن أحلامنا عند حصول «انهزام مؤقت»، وكلنا ارتكب هذا الذنب، أو سيرتكبه ذات يوم.

إن المشاهد والحكايات التي تمر بنا قد تمثل سجلاً جيداً لأفكار عظيمة، فقط إذا استفدنا منها، ولنتأمل معاً هذه الحكاية :

يروي أحد المشاهير في مجال السياسة والمال في أمريكا أنه وقبل أن يتعرف

إلى أسرار الثروة كان مجرد صبي يساعد عمه في مزرعته، وفي طحن حبوب القمح تحديداً، وذات يوم اندفعت طفلة صغيرة تجاه عمه، وكانت ابنة أحد المزارعين في المزرعة، فنظر إليها العم غاضباً وسألها عن حاجتها، فأجابت : أمي تريد بعض النقود، فرفض أن يعطيها وأمرها بالعودة للمنزل، فقالت له: أمرك ياسيدي، ولم تتحرك من مكانها.

انهمك الرجل في عمله، وحينما رفع رأسه رآها مازالت في مكانها، فصرخ فيها، كما فعل في المرة الأولى، لكنها أجابته بالإجابة نفسها، مع أنه هددها بالضرب، وعندها ترك ما في يده وتوجه نحوها، وكان الاحتمال الوحيد أنه سيوسعها ضرباً– فقد كان الرجل شرساً حاد الطباع– إلا أن الذي حدث لم يكن متوقعاً!

لقد تقدمت منه الطفلة ونظرت إلى عينيه وصرخت بأعلى صوتها «أمي تريد بعض النقود»، فجمد الرجل ونظر إليها، ثم وضع يده في جيبه وأعطاها شيئاً من المال ! أخذته وعادت أدراجها بهدوء من دون أن تسقط عينيها عن الرجل، ماذا فعلت تلك الطفلة بذلك الرجل الشرس؟

باختصار لقد ملأت نفسها بهدف واضح، وإيمان ثابت بقدرتها على انتزاع المال منه، وبهذا « اقتحمت الرجل» بصرختها تلك و«صفعته» من

دون أن يحرك ساكناً، لكنها في النهاية حققت ما أرادت وجلس هو فوق أحد البراميل ينظر إلى النافذة باتجاه الفضاء أكثر من عشر دقائق متأثراً من هول الصرخة / الصفعة التي تلقاها؟

obeikandl.com

(15)

العجوز شيللا

عندما عشت مع العجوز البريطانية «شيللا » كنت اكتشف كل يوم أمراً مهماً في حياة تلك السيدة يجعلها تختلف عن عجائزنا في تقبلها للحياة وعدم تبرمها مثلهن من كل شيء برغم أنها قد تجاوزت ربيعها الخامس بعد السبعين ولكن بكل رشاقة وأريحية تحسد عليها فعلاً، فقد ذهبت إلى مدينة كامبردج الجميلة وأنا أحمل عنوان بيت السيدة شيللا بعد أن أريته لسائق السيارة الذي أقلني من لندن إلى هناك، وهناك حينما وقفت بي السيارة أمام منزلها وضغطت على جرس الباب اعتقدت بأنني سأقابل سيدة تجر نفسها جراً أو تتحرك على كرسي متحرك، لكن الباب انفتح على مفاجئة غير متوقعة بالنسبة لي .

obeikandl.com

كنت أعلم أنني سأسكن في منزل سيدة عجوز أعطوني كل مواصفاتها وطباعها، لكن العجوز التي فتحت لي الباب لا تبدو في الخامسة والسبعين أبداً، فقد أدخلتني وأستأذنت بأنها كانت في طريقها إلى السوبرماركت، تبعتها إلى الخارج فإذا بها تخرج دراجة هوائية كانت تضعها في مكان ما فتحت القفل ثم ركبتها برشاقة وانطلقت كصبية في الخامسة عشرة لا أكثر !!

في اليوم التالي كان عليَّ أن ألتحق مباشرة بمدرسة اللغة الإنجليزية، وكان يتوجب عليها أن تشرح لي كيفية استخدام الحافلة والمحطات التي على المرور عليها ومتى يتوجب عليَّ قرع الجرس ليتوقف السائق عند المكان المحدد لنزولي، وهنا عرضت عليَّ أن أركب خلفها على دراجتها في طريقنا لموقف الحافلات، فاعتذرت بلباقة وأخبرتها أنني أفضل أن أصل مشياً على قدمي فالطقس جميل، وهو بالتأكيد أجمل من منظري وأنا أركب دراجة متهالكة خلف عجوز بريطانية !!

فيما بعد تعرفت إليها جيداً فأسرت لي بأنها حينما رأتني للوهلة الأولى اعتقدت بأنني هندية فهي لاتعرف من الشرق سوى الهند على ما يبدو فهذا آخر ما درسته في مادة الجغرافيا قسم المستعمرات البريطانية، المهم أنها لم تكن لطيفة بما يكفي لتخفف عني كآبة الغربة والوحدة وقسوة بريطانيا التي

لم أتمكن من استلطافها يوماً فعدت من دون أن أكمل دراستي !!

لم أجد هذه العجوز برغم وحدتها تشكو يوماً من شيء ما، لا من أولادها الذين لا يزورونها باستمرار كما تفعل كل الأمهات عندنا، ولا من الحكومة التي لا توفر لها العلاج ومساعدات الشؤون الاجتماعية ولا من مشاكل هشاشة العظام أو مواعيد فحص الضغط والسكر والكولسترول، لم تشتك يوماً لأن جيرانها لا يزورونها كما ينبغي، ولم تتحدث على الهاتف أكثر من عشر دقائق، تعد لي ولنفسها كل يوم وبدون كلل طعام الإفطار « يادوب بيضة مسلوقة وتوست بايت» ووجبة الغداء، وتهتم بحديقة لطيفة في فنائها الخلفي وهي من المهتمين بزهرة الأوركيد فكانت تذهب إلى كل معرض للزهور يقام في المدينة لاقتناء زهرة جديدة أو كتاب يتحدث عن هذه الزهرة الرائعة، كانت تقضي نهارها تقرأ الصحف الفضائحية تحل المسابقات وترتب قصاصات تقتطعها من هنا وهناك ربما احتاجتها مستقبلاً !!

حياتها العائلية تسير في خط مستقيم لم يختل يوماً، فيوم السبت يأتيها ابنها الكبير مع ولديه اللذين يملآن البيت لعباً وضجيجاً حتى العصر، ويوم الأحد تأتيها ابنتها باكراً لتصطحبها معها طيلة النهار، ماعدا ذلك فإن بقية الأسبوع تقضيه شيللا وحدها تتدبر أمورها ببساطة وهدوء ومن دون تذمر .

(16)

في صباح غير عادي

جلس رجل في صباح يوم شتائي بارد في محطة قطارات الأنفاق في العاصمة واشنطن، وبدأ يعزف على كمانه مقطوعات موسيقية لبيتهوفن.

عزف الرجل لمدة 45 دقيقة، مر خلالها آلاف الناس من هناك، أكثرهم ذاهب إلى عمله في زحمة الصباح، وبعد ثلاث دقائق انتبه رجل في الخمسين من عمره لعازف الموسيقى الواقف يعزف على آلته، فخفف قليلاً من مشيته، ووقف لبضع ثوان ثم تابع طريقه.

وبعد دقيقة حصل العازف على أول دولار رمته امرأة في حاضنة الكمان، وبدون أن تتوقف ولو لثانية واحدة، وبعد بضع دقائق، استند شخص على

obeikandl.com

الجدار للاستماع اليه، ولكنه بعد قليل نظر إلى ساعته وعاد يمشي من جديد.

أكثر الذين أظهروا اهتمامهم بالرجل كان طفل في الثالثة من عمره كان يمسك بيد أمه ويسير بجانبها من دون توقف، لكن نظره كان مع العازف، حتى وبعد ابتعادهما عن العازف مشى الطفل وهو ينظر للخلف، وقد حصل هذا الأمر مع العديد من الأطفال الآخرين. جميع الآباء، ومن دون استثناء، كانوا يجبرون أبناءهم على السير رغم نظرات الأطفال وانتباههم.

وبعد مضي 45 دقيقة أخرى من العزف على الكمان، ستة أشخاص فقط هم الذين توقفوا واستمعوا للعزف لفترة ثم انصرفوا. وحوالي عشرين شخصاً قدموا له المال و عادوا للسير مستعجلين .. في نهاية اليوم جمع العازف32 دولاراً حتى الآن.

وبعد انتهائه من العزف عمّ الصمت في محطة المترو، لكن لم ينتبه لذلك أحد، ولم يصفق له أو يشكره أي شخص.

لم يعرف المارة أن عازف الكمان هو جوشوا بيل أحد أشهر و أفضل الموسيقيين في العالم.

وقد كان يعزف إحدى أعقد المقطوعات الموسيقية المكتوبة على الكمان في العالم تقدر قيمتها ب 3.5 مليون دولار.

حيث كان قد عزفها قبل يومين في قاعة مليئة في أحد مسارح بوسطن وكان سعر البطاقة الواحدة 100 دولار أمريكي.

لقد عزف جوشوا بيل متخفياً في محطة مترو الأنفاق كجزء من تجربة اجتماعية قامت بها صحيفة الواشنطن بوست عن الإحساس بالجمال عند الناس وطريقة التعامل معه، والأولويات عند البشر.

كانت أسئلة التجربة هي : في بيئة عامة مزدحمة و في وقت غير ملائم: هل لدينا القدرة على استشعار الجمال؟

هل نتوقف لنقدر الجمال؟ هل نستطيع أن نميز الموهبة في مكان غير متوقع؟

إذا لم يكن لدينا الوقت للوقوف للحظة وسماع عزف أعظم موسيقي لأجمل مقطوعة موسيقية في تاريخ الفن، النتيجة التي خلصت إليها التجربة هي أن الناس تتعامل مع أكثر الأشياء أهمية وجمالاً كما تتعامل مع أتفه الأشياء حين تكون في طريقها لعمل تراه أولى الأولويات بالنسبة لها !!

ترى كم هي الأشياء التي نعبر عليها خلال يومنا من دون أن نعيرها أدنى اهتمام .

(17)

لا تقرر أن تكون وحيداً

يحدث أحياناً أن تصحو من نومك من دون مخطط محدد ليومك التالي خاصة إذا كنت تقضي عطلة استراحة طال أمد انتظارك لها، وإذ تفتح عينيك فلا يلوح في فضاء عقلك سوى نهار طقس أبيض خال من الخرائط ومحطات البنزين واستراحات الطريق، نهار لا يلوح فيه شيء سواك ووجه صاحبة الفندق ونادلة المقهى الصغير في آخر الساحة وبالكاد جريدة عربية وحيدة تحمد الله أن استطاعت شركة التوزيع الاستدلال على هذا المكان القصي من العالم فأوصلت بضع نسخ لخمسة أشخاص يصلونه ويتحدثون اللغة العربية، ومع ذلك فقد يحدث أن ينقلب كل ذلك بشكل مباغت .

obeikandl.com

تقرر أن تقضي اليوم في صحبة الفراغ والهدوء، ستقود سيارتك إلى قرية مجاورة لتجلس في استرخاء تام بصحبة أناس لا علاقة لك بهم ولا علاقة لهم بك، ينظرون إليك من طرف خفي ويتهامسون، تقول ربما يتهامسون علي وتقول ربما لم يلحظوا حتى وجودي لكنهم يهمسون لأنهم ليسوا مثلنا حين يحدثون جارهم يقررون إسماع الحي كله، في النهاية تقرر أنه لا يعنيك أمر همسهم فأنت قد جئت لتشرب فنجان قهوة نصحك به أحدهم ذات يوم، وفجأة تقرر أن تركب المصعد الكهربائي لتعتلي أعلى قمة جبلية في المنطقة هكذا من دون تخطيط، تقوم مسرعاً، تشتري تذكرة المصعد، وتركب محلقاً بين السماء والأرض ممتلئاً بالدهشة لأنك اكتشفت بأنك لاتخاف من الأماكن المرتفعة كما أغلب الأصحاب وأفراد العائلة .. تحمد الله وتمضي إلى الـ 2000 متر ارتفاعاً .

تجلس في الأعالي لتشرب قهوة أخرى لا تشعر بنكهتها ولا بضرورتها لكنك طلبتها لأن الجميع فعلوا ذلك، وفجأة يرن جهاز هاتفك، وإذا بك مطالب وبشكل لا مجال لمناقشته أن تتوجه إلى مكان يبعد عنك حيث أنت اكثر من 300 كيلو متر، عليك إذن أن تهبط من حيث أنت في المكان وأن تخرج من سكينتك وأن تعيد برمجة دماغك، لتتوجه لمطار عاصمة مجاورة،

لأن هناك من جاء من الإمارات وليس بإمكانه أن يصلك إلا معك، تقول لاحول ولاقوة إلا بالله وتمضي مسرعاً، في الطريق تصطدم براكب دراجة يحطم جزءاً لابأس به من سيارتك المؤجرة، فتفكر في التكاليف وتفكر بهذا الشاب الذي كسرت ساقه، وتفكر في تعقيدات الشرطة هنا وفي التأخير الذي سيترتب عليه عدم وصولك للمطار في الوقت المناسب، وفي مشكلة اللغة وجوازك الذي ليس معك وفي.. وفي.. وتقول ليتني لم أرد على الهاتف لكنت لازلت أستمتع بالهدوء والفراغ وبفنجان القهوة الذي لا نكهة له .

تنتهي الحكاية على خير ويقول الشاب بأن إصابته بسيطة ولا داعي للشرطة فتتحمل وحدك تكاليف تصليح السيارة لأنك لاتريد أن تتأخر على المطار، وتكمل طريقك فإذا بطابور من السيارات يسد الأفق، هناك حادث فتطيش أعصابك، وتذهب باحثاً عن طريق بديل لأنك لا تريد أن تتأخر على المطار، تتقاذفك الطرقات ولكنك تصل إلى ما قبل المطار بأقل من نصف ساعة، لقد بذلت جهداً خرافياً بالفعل، لكن الذي لم يخطر ببالك أبداً أن يكون الشخص الذي فعلت كل ذلك لأجله قد استأجر سيارة وذهب إليك ووصل إلى حيث تسكن وهو يتصل بك ليقول ببرود في أي غرفة تسكن فانأ في الفندق الفلاني .

(18)

من أية نافذة تنظر؟

في نهاية احتفالاته بزفاف ابنته، جلس أحد الأدباء أمام مكتبه وأمسك بقلمه، وكتب: في السنة الماضية، أجريت عملية إزالة المرارة، ولازمت الفراش عدة شهور..وبلغت الستين من العمر فتركت وظيفتي المهمة في دار النشر الكبرى التي ظللت أعمل بها ثلاثين عاماً ..وزادت كوارثي حين توفي والدي فدخلت في حزن عميق ..أما كبرى مصائبي فهي عندما تلقيت خبر رسوب ابني في بكالوريوس كلية الطب لتعطله عن الدراسة عدة شهور بسبب إصابته في حادث سيارة وملازمته الفراش طويلاً ،وفي نهاية الصفحة كتب.. « يا لها من سنة سيئة »!!

obeikandl.com

ثم أطلق بصره عبر زجاج النافذة متأوهاً بحزن واضح، كان كمن يئن تحت جبل من الأحزان، في هذا الوقت كانت زوجته تطلق جلبة في الخارج، هي ضوضاء امرأة انتهت في الحال من استيعاب فرحة عمرها بزفاف ابنتها الكبرى إلى عريسها الشاب الذي لطالما تمنته العائله زوجاً لهذه الابنة المتفوقة، وحين دخلت على زوجها رأته غارقاً في صمته وشارداً بشكل غريب، فاقتربت منه، ومن فوق كتفه قرأت كل ما كتب في الورقة ..

تركت الزوجة الغرفة بهدوء إلى الخارج، وبعد دقائق عادت وفي يدها ورقة بيضاء مدون فيها عبارات كثيرة، وضعتها بهدوء بجوار الورقة التي سبق أن كتبها زوجها، عندها انتبه الزوج إلى حركتها، نظر اليها ثم تناول الورقة التي كتبتها وقرأ فيها : في السنة الماضية يا زوجي العزيز شفيت من آلام المرارة التي عذبتك لسنوات طويلة، وبلغت الستين وأنت في تمام الصحة والنشاط وتوهج الرغبة في العطاء والكتابة، أنت الآن متفرغ للكتابة والتأليف بعد أن تم التعاقد معك على نشر أكثر من كتاب من قبل دور نشر كبرى في البلد .

لقد عاش والدك يا عزيزي حتى بلغ الخامسة والثمانين من دون أن يسبب لأحد من أبنائه أو أقربائه أية متاعب، وتوفى في هدوء من دون معاناة مع

أي نوع من المرض، لقد توفى هادئاً قرير العين أما ابننا فقد نجا من الموت في حادث السيارة وشفي بغير أيه عاهات أو مضاعفات، نعم لقد رسب في امتحانات البكالوريوس لكنه لا زال يرفل بالحياة والنشاط والذكاء وسوف يعيد السنة وينجح .

وفي نهاية الورقة كتبت الزوجة هذه العبارة ذات الوقع المختلف : « يا لها من سنة تغلب فيها حظنا الحسن على حظنا السيئ» !

نحن نعيش الظروف نفسها، ونتشارك الهواء مع الأشخاص أنفسهم، وتمر علينا التفاصيل نفسها، لكن كل منا ينظر إليها من زاوية مختلفة، لا يختلف المشهد الذي ننظر اليه، لكن زواية النظر هي التي تختلف، إنها النافذة التي نطل منها على الخارج، إن النوافذ مختلفة وكثيرة فلماذا نختار أن نطل من أكثرها ضيقاً وإطلالاً على أسوأ المناظر ؟

obeikandl.com